أين نحن من هؤلاء ١٤

رُفقاءُ طريق

د. عبد الملك القاسم

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك بن محمد
رفقاء طريق - الرياض
٨٨ ص ؛ ١٢× ١٧ سم - (أبو نذر مع هؤلاء؛ ١٤)
ردمك: ٨ - ٠٥٠ - ٣٣ - ٩٩٦٠
١ - الأخلاق الإسلامية ٢ - الوعظ والإرشاد أ - العنوان
ديوي ٢١٢ ١٧/٣٣٣٨

رقم الإيداع: ١٧/٣٣٣٨
ردمك: ٨ - ٠٥٠ - ٣٣ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم للنشر
جدة. هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠. فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام. هاتف: ٨٤٣١٠٠٠. فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة. هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨. فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
خميس مشيط. هاتف: ٢٢٢٢٢٦١. فاكس: ٢٢٢٣٠٥٠
www.dar-algassem.com
sales@dar-algassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الْحَمْدَ لله نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُور أَنْفُسنَا، وَمِنْ سَيِّئَات أَعْمَالنَا. مَنْ يَهْده الله، فلا مُضلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ.. أَمَّا بَعْدُ:

فإن تزكية النفس البشرية. بما يهذب أخلاقها، ويقيم سلوكها، ويجعلها تسير في طريق خالقها، متطلعة إلى لقاء بارئها على الحال التي يرضاها لا يكون إلا بالعلم الشرعي الصحيح المستمد من كتاب الله؟ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومما صح من سنة المصطفى ﷺ الذي كان أتقى الناس لربه، وأخشاهم له، على ما فهمه سلف الأمة الصالح، الذين كانوا قرآنا يمشي على الأرض، فكانوا أعلام تقى، ومصابيح دجى، ومنارات هدى.

ولقد أيقن ولاة أمر مهبط الوحي، ومأرب الإيمان، ومهوى أفئدة المسلمين منذ عهد المؤسس الأول الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ـ رحمه الله ـ إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ـ حفظه الله وسدده ـ أيقنوا هذه الحقيقة فجعلوها نصب أعينهم، ومنهج سياستهم وحكمهم.

وقد ظهرت تلك القناعة لدى أولئك الأفذاذ في أنظمة الحكم، وسياسة التعليم، ودور العلم، ومناهج الدراسة، ومراكز العناية بكتاب الله ـ تعالى ـ، وسنة نبيه ﷺ، فإذا شواهد على إيمان ولاة أمر هذه البلاد بتلك الحقيقة الناصعة.

ومن شواهد الإدراك أيضاً لتلك الحقيقة لدى قادة المملكة العربية السعودية عناية مؤسسات الدولة المختلفة بالكتب العلمية النافعة؟ التي تعد ببيان الحق، وتدعو إلى الفضيلة، وتحارب الرذيلة، وتوضح المنهج الشرعي للتعامل مع الناس.

وإن المديرية العامة لكلية الملك فهد الأمنية وهي تترسم خطى القادة الأبرار بتوجيه من صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية،

وصاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف مساعد وزير الداخلية للشؤون الأمنية إن الكلية ليشرفها أن تشارك مؤسسات الدولة الأخرى في العناية بكتب العلم النافع فتقدم لمنسوبيها والساكنين بإسكانها وضيوفها مجموعة من الكتيبات تحمل مضامين توعوية، وتوضح مسائل شرعية، وأساليب تربوية سطرتها أقلام أصحاب علم أفاضل، ودعاة أماجد.

ومن بين تلك الكتيبات ما يبين «جهود الملك عبد العزيز في خدمة الكتاب والسنة»، ويوضح «وجوب طاعة ولاة أمر المسلمين بالمعروف» ويشرح «مفهوم المواطنة في الفكر الإسلامي»، و«ظاهرة الغلو في ضوء القرآن الكريم».

وقد أحسنت إدارة الشؤون الدينية في اختيار هذه المجموعة من الكتيبات البالغ عددها خمسة عشر كتيباً فقد جاءت متنوعة في مضمونها، سهلة في أسلوبها، مناسبة للمستفيدين من أنشطة الإدارة على اختلاف مستوياتهم التعليمية، ودرجاتهم العلمية، واهتماماتهم الثقافية. وإن كلية الملك فهد الأمنية وهي تقدم هذه المجموعة الطيبة من الكتيبات لتعد منسوبيها، والمستفيدين من أنشطتها بأن يتبع هذه المجموعة النافعة مجموعات أخر تنفيذاً لتوجيهات صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز الذين آلوا على أنفسهم أن يكونوا حراس عقيدة، ورجال أمن، ودعاة علم إيماناً منهم بأن الأمن في الأوطان لا يتحقق إلا بصحة الإيمان، وسلامة القلوب، واستقامة السلوك، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في شتى مجالات الحياة.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

مدير عام كلية الملك فهد الأمنية
اللواء /
عبد الرحمن بن عبد العزيز الفيصل

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد:

فإن الإسلام دين صفاء ونقاء وأخوة ومودة، يظهر ذلك جلياً في آيات كثيرة من كتاب الله ـ عز وجل ـ، وفي سنة نبيه ﷺ.

وقد اخترت للأخ القارئ نماذج من الرفقة الصالحة قولاً وفعلاً لأهميتها في عصرنا الحاضر اقتداءً وتأسياً.

وهذا هو الجزء الرابع عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان «**رُفقاءُ طريق**».

أدعو الله ـ عز وجل ـ أن يعيننا على أداء حقوق الأخوة الصادقة وأن يجمعنا وأحبتنا تحت ظل عرشه أخوة متحابين.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

إن الإنسان وهو يسير في هذه الدنيا ويقطع مراحل حياته فيها يحتاج إلى من يؤانسه في الطريق ويسلي وحدته في السفر... ويكون عوناً عند نزول الملمَّات والحوادث، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه... أصاب من الدِّين أوفره ومن الأدب أكثره... جمع الله له بين الدين والخلق.

إنه الأخ المسلم الناصح المشفق... صاحب الخلق والدين.

ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن، الألفة وانقطاع الوحشة، ومهما طاب الثمر طابت الثمرة، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الألفة سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع، قال الله ـ تعالى ـ مظهراً عظيم منَّته على الخلق بنعمة الألفة: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ

بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾. إي بالألفة، ثم ذمَّ التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ إلى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال ﷺ: «**إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يألفونَ ويُؤْلَفون**»(١)(٢).

أخي المسلم: إن التحاب في الله والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله ـ تعالى ـ، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزعات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يتقرّب إلى الله زلفى، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى(٣).

واعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، عن أبي

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٢) الإحياء ٢/ ١٧١.

(٣) الإحياء٢/ ١٧١.

هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «**الرجلُ على دينِ خَليلِه فلْينظرْ أحدُكم من يُخالل**»[١] ولا بد أن يتميز الصاحب بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة.

ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية:

أما الدنيوية: كالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة.

أما الدينية: فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصُّناً به عن إيذاء من يشوش القلب ويصدُّ عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال[٢].

أخي المسلم: ينبغي فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسنَ الخُلق غيرَ فاسقٍ ولا مبتدع ولا

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال النووي: إسناده صحيح.
(٢) الإحياء ٢/ ١٨٥.

حريص على الدنيا[١].

وقد أثنى ـ جل وعلا ـ على الصحبة الطيبة وجعلها سبباً لدخول الجنة...

قال ﷺ: «**إن الله ـ تعالى ـ يقولُ يومَ القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلَّ إلا ظلّي**»[٢]، وقال ﷺ: «**سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه...**»[٣].

بل ورفع الله ـ عز وجل ـ ذكر الكلب برفقته للصالحين فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

إن الخليل هو المرآة التي تعكس صورتك للناس وتريهم من تكون... فالمرء على دين خليله، فلينظر المرء من يُخالل...

---

(١) الأحياء ٢/ ١٨٦،

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

قال أبو سليمان: قوله المرء على دين خليله معناه لا تخاللُ إلا مَن رضيتَ دينه وأمانته، فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه... ولا تغرر بدينك ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضياً في دينه ومذهبه[١].

أنتَ في النَّاسِ تُقاسُ
بمن اخترتَ خليلا
فاصْحَبِ الأخيارَ تعلُو
وتنلْ ذِكْراً جميلا

وانظر أخي المسلم إلى موقف الأخلاء من بعض يوم القيامة وهو أهم المواقف وأعظمها شأناً، قال جلَّ وعلا يصف حالتهم: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

وفي وصف عجيب وتصوير دقيق للصحبة وأثرها قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يُحرق**

(١) العزلة ٥١٠.

ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنه»[١].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع قول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١][٢].

وللأخوة حقوق قد ذكرها عطاء بن ميسرة بقوله: تعاهدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم[٣].

ولا شك أن لكل إنساناً عيباً وفي كل مخلوق نقصاً... من أولئك أيضاً من اخترتهم للصحبة واصطفيتهم للرفقة ولكن:

إنْ تَجِدْ عيباً فسُدَّ الخَلَلا
فجلَّ من لا عيبَ فيه وعَلا[٤]

(١) متفق عليه.
(٢) الإحياء ٢/ ١٧٥.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ١٩٨.
(٤) البداية والنهاية ١٤/ ١٦٠.

قال أبو علـــي الرباطي: صحبت عبدالله الرازي وكان يدخل البادية، فقال: عليَّ أن تكون أنت الأمير أو أنا؟، فقلـــت: بل أنتَ، فقال: وعليك الطاعة، فقلت: نعم، فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره... فإذا قلت له أعطني، قال: ألست قلت: أنت الأمير، فعليك الطاعة، فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس، يمنع عني المطر... فكنت أقوال مع نفسي: ليتني متُّ ولم أقل: أنت الأمير[١].

أين أخي الحبيب هؤلاء مـــن رفقة اليوم... وصحبة هذا الزمن؟!

ولهذا قال المأمون: الإخوان ثلاثة: **أحدهم**: مثله مثل الغذاء لا يســـتغنى عنه، **والآخر**: مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقـــت دون وقت، **والثالـــث**: مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط... ولكن العبد قد يُبتلى به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع...

وقد قيل: مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات...

(١) الإحياء ٢/ ١٩٩

فمنها ما له ظلٌّ وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإنَّ نَفْعَ الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها ما له ثمر وظلٌّ جميعاً، ومنها ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق النبات ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب.

الناسُ شَتَّى إذا ما أنت ذُقتهم لا
يستوون كما لا يستوي الشجرُ
هذا له ثمرٌ حُلو مذاقته
وذاك ليس له طعمٌ ولا ثمر[1]

ولكن أخي الكريم عليك بحسن الاختيار... والحرص والتحرِّي... وانظر مع من تجتمع وعلى ماذا تجتمع وكيف تختار الأصدقاء؟! أهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣] فأعانوا على الطاعة والاستقامة والسير إلى الله أم أهل الضياع والضلال والخسران؟!

---

(١) الإحياء ٢/ ١٨٧

فإن الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرّته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: **إحدهما:** تزيّن بعضهم لبعض، **الثانية:** الكلام والخلطة أكثر من الحاجة، **الثالثة:** أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود، وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللِّقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من المَلَك، والخبيثة من الشيطان، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ بحكمتَه الطيّبات للطيّبين والطيّبين للطيّبات وعكس ذلك[1].

قال أبو حاتم: الكريم يلين إذا استُعْطفَ، واللئيم يقسو

(١) الفوائد ٦٨.

إذا أُلطف، والكريم يُجلُّ الكرامَ، ولا يُهين اللِّئام، ولا يؤذي العاقل، ولا يمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، مؤثراً إخوانه على نفسه باذلاً لهم ما ملك، إذا طلع على رغبة من أخ لم يدع مكافأتها، وإذا عرف منه مودة لم ينظر في قلق العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء[١].

وإذا صاحبتَ فاصحب صاحباً
ذا حياء وعفاف وكَرم
قائلاً للشيء لا إن قلت لا
وإذا قلتَ نعم قال نعم[٢]

وليست موافقة الصاحب مقصورة على الحياة فحسب بل إن نفع هذا الخليل يمتد إلى ما بعد ذلك وهو استمرار لهذه المحبة الصادقة والأخوة الظاهرة فقد كان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون مما خلّقت، وهو منفرد بحزنك مهتم مما قدمت وما صرت إليه يدعو لك في

(١) روضة العقلاء ١٧٣.

(٢) شذرات الذهب ١/ ٩٧.

ظلمات الليل وأنت تحت أطباق الثرى[١].

ورأينا هذا الفعل في كثير من الأخلاء الصالحين... يتصدقون عن صاحبهم ويدعون له... وما ذكر في مجلس إلا ترحموا عليه ودعوا له بالمغفرة ولسان أحدهم يقول:

ولقد نظرتُ فلم أجدْ يُهدى لكم
غير الدعاء المستجاب الصَّالح[٢]

ومثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى... فهما يتعاونان في إصلاح بعضهما وكذلك يتشاركان في السراء والضراء... وكل منهم للآخر معين ومساعد... يعينه في سير الدنيا إلى الآخرة.

أخي المسلم: إذا لم تجد رفيقاً صالحاً وأخاً في الله فإن الوحدة وقراءة القرآن خيرٌ لك، والكتب النافعة أثمر والتزود من الطاعات أجدى وأنفع... وقس الأمر وانظر أين الخير؟!

فقد قال مالك بن دينار: كل جليس لا تستفيد منه

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٠٢.

(٢) شذرات الذهب ٧/ ٨٥.

خيراً فاجتنبه[١].

وقال بكر بن محمد العابد: قال لي داود الطائي: يا بكر، استوحش من الناس كما تستوحش من السبع[٢].

وقال عبدالعزيز بن الخطاب: رؤي إلى جنب مالك بن دينار كلب عظيم ضخم أسود رابض، فقيل له: يا أبا يحيى، ألا ترى هذا الكلب إلى جنبك؟ قال: هذا خير من جليس السوء[٣].

وعندما سئل إبراهيم بن أدهم: لما لا تصحب الناس؟ قال: إنْ صحبتُ من هو فوقي: تكبَّر عليَّ.
وإذا صحبتُ من هو دوني: لم يعرفْ حقِّي.
وإذا صحبتُ من هو مثلي: حَسَدني.

لا تصحبْ أخا الجهل فإياك وإيَّاهُ
فكم من جاهل أرْدَى حليماً حين يَغْشَاهُ

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٢.
(٢) روضة العقلاء ٨٢.
(٣) روضة العقلاء ٨٢.

يقاسُ المرء بالمرء
إذا هو ما شَاه
وللشيء على الشيء
مقاييس وأشْبَاهُ
وللقلب على القلب
دليلٌ حين يَلْقَاهُ

أخي... أعلم أن كل من يُحبِّ في الله لا بد أن يُبغضَ في الله فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله[1].

والصحبة تنقسم إلى ما يقع عليه الاتفاق، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب، أو في المدرسة أو في السوق، أو على باب السلطان أو في الأسفار، وإلى ما ينشأ اختياراً وقصداً، وأجلُّها وأعظمُها الأخوة في الدِّين، فإنَّ من رافق الأخيار أصبح منهم ومن سار مع الطيبين هبتْ نسمات الخير على وجهه... فهم خير معين بَعَدَ الله في الدنيا وهم خير رفيق في السير إلى

(١) الأحياء ٢/ ١٨١.

الدار الآخرة. . .

انظر إلى حالهم في الدنيا وإلى نماذج من صورهم الطيبة وأفعالهم الزكية. . . فقد دخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دَيْنٌ!! قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال: فهو عليَّ[1].

إذا أعجبتك خلال امرىء
فكنه يكنْ منكَ ما يُعجبُك
فليس على الجود والمَكَرَمات
إذا جُئتها حاجب يحجبك[2]

نعم من يحجبُ الإنسان عن التخلُّق بالخلق الحسن؟ ومن يمنع المرء عن معالي الأمور؟

قال الشعبي: إن كرام الناس أسرعهم مودة، وأبطؤهم عداوة، مثل الكوب من الفضة يبطء الانكسار، ويسرع الانجبار، وإن لئام الناس أبطؤهم مودةً وأسرعهم عداوةً، مثل الكوب من الفخار: يسرع الانكسار، ويبطيء

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٤١.

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٤٥.

الانجبار.

وقال أبو حاتم: الكريم مَنْ أعطاه شَكره، ومَنْ منعه عذره، ومَنْ قطعه وصله، ومن وصله فضله، ومن سأله أعطاه، ومن لم يسأله ابتدأه، وإذا استضعف أحداً رحمه، وإذا استضعفه أحد رأي الموت له منه، واللئيم بضدّ ما وصفنا من الخصال كلّها[١].

قال بعضهم لرجل وهو يعظه: جماع الخير كله في ثلاثة أشياء: إن لم تُمض نهارك بما هو لك فلا تمضه بما هو عليك، وإن لم تصحب الأخيار فلا تصحب الأشرار، وإن لم تنفق فيما لله رضاء فلا تنفقه فيما لله فيه سخط[٢].

أخي المسلم... إن ما نراه من التكلف وعدم التبسط بين الأحباب ومع الأصحاب مَرَدُّه إلى عدم معرفتنا حقوق الأخوة في الله... ومدى قوة هذا الوثاق.

قال عبدالله بن الوليد: قال لنا أبو جعفر محمد بن

---

(١) روضة العقلاء ١٧٤.

(٢) الزهد للبيهقي ٣١٠.

علي: يُدخلُ أحدكُم يدُهَ في كُمّ صاحبه فيأخذ ما يريد؟ قلنا: لا، قال: فلستم بإخوان كَما تزعمون[١].

ويقول الإمام الشافعي:

إذا المـــرءُ لا يـلـقـاك إلا تـكـلُّـفـاً
فَـدَعْـهُ ولا تُـكـثـر عـلـيـه الـتـأسُّـفـا
فـفـي الـنـاس أبـــدالٌ وفـــي الـتـرك راحـــةٌ
وفـي الـقـلـب صـبـرٌ لـلـحـبـيـب ولـو جفا
فـمـا كـلُّ مَـنْ تـهـواه يـهـواك قَـلْـبُـه
ولا كُـلَّ مَـنْ مـن صـافـيـتَـه لـك قَـدْ صفَا
إذا لـم يـكـنْ صـفـوُ الـوداد طـبـيـعـةً
فـلا خَـبْـرَ فـي ودٍ يـجـيءُ تَـكَـلُّـفـا
ولا خـيـرَ فـي خِـلٍ يـخـونُ خَـلـيـلَـهُ
ويـلـقـاهُ مـنْ بـعـد المـودَّة بـالجفا
ويـنـكـر عـيـشـاً قـد تـقـادَمَ عَـهْـدُه
ويُـظـهـر سـراً كـان بـالأمـس فـي خَـفَـا
سـلامٌ عـلـى الـدنـيـا إذا لـم يـكـن بها
صـديـقٌ صَـدُوقٌ صـادقُ الـوعـد مُـنْـصـفـا

وصفـات الصاحب الكريم صفـات محبوبة وخصال

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٨٧.

حميدة. . . والشاعر يميزه عن اللئيم فيقول:

وترى الكريمَ إذا تقدَّم وصْلُه
يُخفي القبيح ويُظهرُ الإحسانا
وترى اللئيمَ إذا تَقَضّى وصْلُه
يُخفي الجميلَ ويُظهر البُهتانا[١]

بل يا أخي:

إنَّ الكريم الذي تبقى مودَّتُه
ويحفظُ السرَّ إن صافى وإن صرما
ليس الكريم الذي إن زلَّ صاحبُه
بثَّ الذي كان من أسْراره علَمَا[٢]

قال بعض الناصحين: لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرَّكَ ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسنتك ويطوي سيئتك، فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذَكرَ الله لم يُعنْهُ، وإن نَسيَ لم يُذكّرْه، وإن غَفَل حرضه على ترك الذكر، ومن كان أصدقَاؤه

(١) الأحياء ٢/ ١٩٥.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ١٥٨.

أشراراً كان هو شرَّهم، وكما أن الخيّر لا يحبُّ إلا البَررة، كذلك الرديّ لا يصحبُ إلا الفَجَرةَ؛ فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات[١].

إنَّ أخـــاك الحـــقَّ مَـــنْ كـــان معـك
ومَـــنْ يـضـرُّ نَـفْـسَـه لـيـنـفَـعـكَ
ومَـــنْ إذا ريـــبُ زمـــان صَـــدَعَـــكَ
شـتَّـتَ فـيـه شَـمْـلَـهُ لـيَـجْـمَـعَـك[٢]

أخي الكريم: إذا أجدبت الأرض وضاقت المسالك... وادلهمَّت الخطوب وتاهت الدروب... هناك يظهر لك الأخ الصادق الوفي... تستأنس برأيه... وتتقوى بهمته يُهوِّن عليك المصيبة ويحمل عنك ما أثقل كاهلك...

أما إذا خضرَّ الأرض وابتسمت لك الدنيا... فالكلُّ أصحاب وأحباب!!

وكـــلُّ الـــنـــاس إخـــوانُ الـــرخـــاء إنمـا
أخـــوكَ الـــذي آخـــاك عـنـد الـشَّـدائـد[٣]

---

(١) روضة العقلاء ١٠٢.

(٢) الإحياء ٢/ ١٧٨.

(٣) العزلة ٥٤.

ومن مصائب الدنيا وشدائدها مصيبة الموت... فما هو أثَرُ الرفقة والصحبة... عند الموت وبعده...؟! هل إذا وُسِّدْتَ الثرى ينقطعُ ذكرك وينساك الأصحاب والأحباب؟! بل هل يُترك أبناؤك لليتم والفقر والعوز... بل والضياع؟!

كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم[١][٢].

ولهذا يوصي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيقول: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يُقليك منه، واعتزل عدوَّك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلَّم من فجوره، ولا تطلعه على سرِّك[٣].

---

(١) أعرف من قام بمثل هذا ثمانية عشر سنة.

(٢) منهاج القاصدين ١٠٨.

(٣) منهاج القاصدين ١٠٨.

قال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خيرٌ من أن تأكل الخبيص[١] مع الفجار[٢].

وقال أبو حاتم: العاقل لا يُدَنِّس عرضه، ولا يُعَوِّدُ نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار، ولا يُغضي عن صيانة عرضه، ورياضة نفسه بصحبة الأخيار، على أن الناس عند الخبرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها.

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

كان أبو حنيفة ربما يمر بالرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه فإن كان به فاقه وصله، وإن مرض عادة حتى يجرَّهُ إلى مواصلته[٣].

وللرفيق حقوق وللصديق واجبات وقد ذكر سعيد بن العاص ذلك بقوله: لجليسي عليَّ ثلاث: إذا دنا رحبتُ به، وإذا حدَّث أقبلتُ، وإذا جلس أوسعتُ له[٤].

---

(١) نوع من الحلوى.

(٢) روضة العقلاء ١٠٠.

(٣) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٦٠.

(٤) الإحياء ٢/ ١٩١.

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ بعضاً من تلك الصفات الحميدة بين المؤمنين فقال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] إشارة إلى الشفقة والإكرام، ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرَّة دونه بل يتنغَّص لفراقه ويستوحش بانفراده[١].

وقال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه»[٢].

إذا أنتَ صاحبتَ فكنْ فتىً
كأنك مملوكٌ لكلِّ رفيق
وكنْ مثْل طَعْم الماء عَذْباً وبارداً
على الكَبد الحرِّيِّ لكلِّ صديق[٣]

هذه صحبة الأخيار ورفقة الصالحين تناديك ـ أخي المسلم ـ فهي عونٌ لك في الشدائد ومنبِّه لك عند العثرات... إعانة على الخير وتواصي بالصبر... فالزم أهل الخير وجاور أهل التقى.

(١) الإحياء ٢/ ١٩١.

(٢) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني.

(٣) التوضع والخمول ٣٧.

فـي الجانب الآخـر... ماذا نرى؟! إنهم الأشـرار ورفقاء السوء... تزيينٌ للفاحشة وإضاعةٌ للطاعات... وإتيان للمحرَّمات... لا تغني معرفتهم في الدنيا شـيئاً ولا تثمر في الآخرة إلا شـقاءً وندمـاً... وصفهم الله ـ جلَّ وعلا ـ يـوم القيامة بأنهم أعداء... انتهتْ تلك الرفقة وتلاشـت تلك الصحبة... وتحوَّل كل ذلك إلى عداوة وبغضـاء ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

كان أبـو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك... فقـال: أجلس إلى قوم يذكِّروني معادي، وإن غبتُ لم يغتابوني[1].

وكانوا يتحرَّون للصحبة كبارَ السِّـن مَنْ جَمَّل الشيب مفارق رؤوسـهم وعلا الوقار حديثهم، عصرتهم الأيام وخبرتهم الليالي... أهل الدِّين والعقل والحكمة.

قال أبو عمرو بن العلاء: رآني سعيد بن جُبَير وأنا جالس

(١) منهاج القاصدين ٤٣٢.

مع الشباب، قال ما يجلسك؟ عليك بالشيوخ[١].

ومن جلس اليوم إلى الشيوخ لم يرض بمجالس الشباب فهناك تخرجُ من أفواه الكبار الحكمة والقصة وتذكر السنين الماضية... وما بينهما إلا ذكرٌ لله واستغفار وتسبيح وتحميد... فمن يداني تلك المجالس يربح ومن يلازمهم يفرح وإن أخذ منهم وأضاف لهم من علمه وقراءته فقد زكى ونما... وله في تلك الرفقة دعوة ومعرفة وخلاصة تجربة... وإلا فعليه بقول أبي الدرداء: لصاحبٌ صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السُّوء، ومملي الخير خيرٌ من الساكت والساكتُ خير من مُمْلي الشرِّ.

وقال أبو حاتم: العاقل لا يصاحبُ الأشرار؛ لأن صحبه صاحب السوء قطعة من النار، تُعقب الضغائن، لا يستقم ودُّه، ولا يفي بعهده.

وإن من سعادة المرء خصالاً أربعاً: أن تكون زوجته موافقته، وولده أبراراً، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده.

---

(١) روضة العقلاء ١٠١.

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيراً تكون مجالسة الكلب خيراً من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، كما أنَّ مَنْ يدخل مداخل السوء يُتهم.

قال الزهري: وهل يُنتفع من السَّيِّء الخُلق بشيء[١].

وقال وهب بن منبه: الأحمق كالثوب الخَلق، إن رفأته من جانب انخرقَ من جانب آخر، مثل الفَخَّار المكسور لا يُرفَّعُ ولا يُشْعَبُ ولا يعادُ طينا.

فهذا مثل الأحمق: إنْ صحبتهُ عنَّاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك مَنَّ عليك وإن أسرَّ إليك اتّهمك، وإن أسررت إليه خانك، وإن كان فوقك حقرك، وإن كان دونك غمزك[٢].

وحال بعض مجالس اليوم قريبة من ذلك بل وتزيد على ذلك...

أخي المسلم... رفقة العاصي ما هي نتيجتها وفائدتها، إنها فراق وشقاق وخسران ووبال... في يوم تتقطع تلك

---

(١) روضة العقلاء ٦٥.

(٢) روضة العقلاء ١٢٢.

المودة وتزول المحبة لأنها بنيت على شفا جرف هار.

قال علي بن الحسين: ما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة[١].

وذلك لأن رباط المعصية رباطٌ واه كخيط العنكبوت سرعان ما ينقطع ويزول... لأنه رباطٌ غير صادق لم يقم إلا على معصية ولم ينشأ إلا على غفلة ومصلحة... متى انتهت انقطع وتصرَّم!!

لكن أوثق العرى رباط الأخوة الدينية الذي ينبهك إذا غفلت ويذكرك إذا نسيت ويحتسب الأجر في مودتك ورفقتك... ويتقرب إلى الله ـ عز وجل ـ بمحبتك...

أخي الحبيب: إن مَنْ ذكَّرك بحقِّ الله عليك وأعانك على الطاعة وجنَّبك المعصية لهو خير الإخوان وأصدق الأخلاء وأوفى الرفقاء... بل إنه بصنيعه هذا خيرٌ لك ممن يعطيك مالاً وينالك منه إحساناً... إن هذا هو خير الإحسان وأوفره...

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٢١.

قال بلال بن سعد: أخ لك كلما لقيك ذكَّرك بحظِّك من الله، خيرٌ لك من أخ كلما لقيك وضع في كفِّك ديناراً[١].

يدلك على درب الآخرة ويزودك من زادها ويسهل لك أمر العبادة ويفتح لك طرق الخير... صاحب خوف ومراقبة وخشية ومحاسبة.

ومن الخوف المستمر، والوجل الدائم قال الفضيل بن عياض: بلغني عن طلحة بن مصرف أنه ضحك يوماً، فوثب على نسه، فقال: فيم الضحك؟! إنما يضحك من قطع الأهوال وجاز الصراط، ثم قال: آليت أن لا أرى ضاحكاً حتى أعلم بما تقع الواقعة، فما رؤي ضاحكاً حتى صار إلى الله ـ عز وجل ـ[٢].

أخي... إن رفقة الصالحين ومصاحبة الطيبين لهي خير مُعين على الطاعة والعبادة بل إنها من المثبتات على لزوم الجادة والسير إلى الدار الآخرة... ولذا حرصوا على

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٢٥.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ١٥.

مصاحبة الأخيار والحث على رفقة الصالحين.

قال إبراهيم التيمي: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسلْ يدك منه[١].

إن مثل هؤلاء الأخيار تجب محبتهم ويحسن القرب منهم قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في ذلك: والله لو صمتُ النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقتُ مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله وبغضٌ لأهل معصيته ما نفعني ذلك شيئاً[٢].

ولتتأمل في إحدى نصائح من نُحب في الله... قال محمد بن يونس بن موسى: سمعت زهير بن نعيم وقد قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن توصي بشيء؟ قال: نعم، احذَرْ أن يأخذَكَ الله وأنت في غفلة.

والمعاملة الطيبة الحسنة صفةٌ ملازمةٌ لأهل الخير فهذا أحدُهم وهو يزيد بن أبي حبيب يقول: لا أدع

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢١٥.

(٢) الإحياء ٢/ ١٧٥.

أخاً لي يغضب عليَّ مرتين، بل أنظر الأمر الذي يكره فأدعه[١].

ألا فنعمت الأخوة ونعمت المحبة...

وكنتُ إذا صحبتُ رجالَ قوم
صحبتُهم وشيمتي الوفاء
فأحسنْ حينُ يُحسنُ مُحسنُهم
وأجْتنب الإساءة إن أساءوا
وأبصر ما يُريبُهم بعد
عليها من عُيونهم غطاء[٢]

دخل جماعة على الحسن: وهو نائم فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان[٣].

وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائباً، فأمر أهله، فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته، فأخبرت الجارية مولاها فقال: إن صدقت فأنت حرةٌ لوجه الله...

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٠.

(٢) شذرات الذهب ٢/ ٣٣.

(٣) منهاج القاصدين ١٠٨.

سروراً بما فعل[١].

لستُ أنسى تلكَ الحقوق ولكنْ
لستُ أدري بأيهنَّ أكافيء

ومَنْ يكافيء أولئك الرجال؟!

كتب الأوزاعي إلى أخ له، أما بعد: فإنه قد أحبط بك من كل جانب، واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والمقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به... والسلام[٢].

أخي المسلم: وإذا كان هؤلاء الإخوان وأولئك هم الأحبة... بين فعل حسن ونصيحة مُحقَّة... فعليك بهم كما أوصى بذلك علي بن أبي طالب: عليكم بالإخوان فإنهم عُدَّةٌ في الدنيا والآخرة... ألا تسمعوا قول أهل النار ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧][٣].

---

(١) الإحياء ٢/ ١٨٩.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٤٠.

(٣) الإحياء ٢/ ١٧٥.

ألا إنهم عـــدة في الدنيا والآخرة. . . إذا كان أحدهم مثل أبي سليمان الداراني الذي يقول: تُعرض عليَّ النكتةُ من نُكت القوم، فلا أقبلها إلا بشـــاهدي عدل، الكتاب والسنة[١].

وما ذاك ـ أخي الكريم ـ إلا خوفاً من أن تكون كلمة ســـوء. . . ويؤزر عليها ولايؤجـــر. . . ومجالس اليوم مجالس لا تَعْرضُ حديثها على الكتاب والسُّـــنة. . . بل إنَّ بعضها فيه اســـتهزاء بالكتاب وأهـــل الســـنة ـ والعياذ بالله ـ.

أخي الحبيب... انظر إلى قياسهم في الصحبة وما يجب في الرفيق، فقد كفوك مؤنة البحث ومشقة النظر ووضعوا لـــك الموازين. . . هذا مالك بـــن دينار يقول للمغيرة بن حبيب: يا مغيرة. . . انظر كلَّ جليس وصاحب لا تستفيد في دينك منه خيراً فانبذْ عنك صحبته[٢].

وكل ما دون الدين فهو ســـهل وكل ما وراء الخير فهو

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٢.

(٢) الزهد ٤٤٩، صفوة الصفوة ٣/ ٢٨٦.

هين. . . ركيزة الدين هي الأساس وما ظهر خلاف ذلك من زلة وهنة فالرجوع قريب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين عصمةٌ ولا أخوةٌ[١].

وقال الفضيل بن عياض: مَنْ طلب أخاً بلا عيب بقي بلا أخ[٢].

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ أمريء مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: أن يتمسَّكَ به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صَرَمه، وعلى الإقبال عليه إن صَدَّ عنه، وعن البذل له إن حرمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتى كأنه ركنٌ من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلوُّنهُ في الوداد[٣].

ويجب أخذ أمر الصديق والرفيق على أحسن المحامل

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٤/١٧.

(٢) روضة العقلاء ١٦٩.

(٣) روضة العقلاء ١٠٣.

وخير التفسيرات.

قالت بنت عبدالله بن مطيع لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف ـ وكان أجود قريش في زمانه ـ: ما رأيت قوماً ألأم من إخوانك!! قال لها: مه، ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك، فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم، يأتوننا في حال قدرتنا على إكرامهم، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم...

فلله درُّه كيف تأوَّل صنيع إخوانه على أوفى وأكمل الأخلاق والنظرات... وما ذاك إلا من تقاه وإيمانه وحسن خُلقه.

وإذا بحثت عن التَّقي وجدتَهُ
رجلاً يُصدِّقُ قولَهُ بفعال
وإذا اتَّقَى الله امرؤٌ وأطاعهُ
فيداه بين مكارم ومَعَال
وعلى التقيِّ إذا تراسخ، فما أرى
نسباً يكون كصالح الأعمال[1]

(١) روضة العقلاء ٩/ ٢٨٦.

أخي الحبيب...

ومَـــنْ لا يـغـمـضُ عَـيْـنَـهُ عـن صديقه
وعَـــنْ بـعـض مـا فـيـه يمـتْ وهـو عـاتـبٌ
ومَـــنْ يـتـتـبـعْ جـاهـداً كـلَّ عَـثْـرَة
يَـجـدْهـا ولا يَـبْـقَـى لـه الـدَّهْـرَ صـاحـبٌ[1]

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

كان عبدالله بن المبارك إذا عزم على الحجِّ يقول لأصحابه: من عزم منكم في هذا العام على الحج فلْيأتني بنفقته حتى أكونَ أنا أنفق عليه، فيأخـذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرَّة اسم صاحبها ويجعلها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسـع ما يكون من النفقات والركوب وحسـن الخلق والتيسـير عليهم، فإذا قضـوا حجَّتهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصَّـاه أهله من الهداية المدنيـة، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث مـن أثناء الطريق إلى بيوتهـم فأصلحت وابيضتْ أبوابُها ورُمِّمَ شـعثها فإذا وصلوا إلـى البلد عمل وليمة

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٦.

بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق فتحه وأخرج منه تلك الصُّررَ، ثم يُقسمُ عليهم أن يأخذ كلُّ واحد نفقته التي عليها اسمه فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم[1].

أخي المسلم... للصداقة الحقة شروط فكما أن هناك صداقة قائمة على منفعة فهذه تدوم بدوام هذه المنفعة، وإما صداقة قائمة على الهوى فهذه صداقة في مهبِّ الريح لأنها قامتْ على أساس متقلِّب فلا يأمن أصحابها غرر بعضهم ببعض، وأما صداقة مبنية على الإيمان والحب في الله فهذه هي الأخوة الصادقة المستمرة.

أخي الكريم...

سامحْ أخاكَ إذا خَلَطَ
منهُ الإصَابةَ والغَلَطَ
وتجافَ عن تعنيفه
إنْ زاغ يوماً أو قَسَطَ
واعلمْ بأنك إنْ طلبتَ
مُهذَّباً رُمتَ الشَّطَطَ

(١) البداية والنهاية ١٠/٢٠٣.

مَـــنْ ذا الـــذي مـــا ســـاءَ قـــطُّ
ومَـــنْ لـــه الحـــسْـــنَـــى فَـــقَـــطْ

والأخ هذا الذي تتحمـل جفوته وتصبر على زلته لا يعدو كونه أحد رجلين. . . قال عنهم شعيب بن حرب: لا تجلس إلا من رجلين: رجل إذا جلسـت إليه يعلمك خيـراً فتقبل منه، أو رجل تعلمـه خيراً فيقبل منك. . . والثالث أهرَبْ منه[1].

وانظـر فيمـن حولـك لتـرى كيف هـم أصحابك وأحبابك؟!

وعليك بمراتب ومنـازل ذكرها ابن الجوزي لتنزل كلاً منهم منزلته. . . قال: كان لنا أصدقاء وإخوان أعتدُّ بهم، فرأيـت منهم من الجفاء وترك شـروط الصداقة والأخوة عجائب فأخذت أعتب.

ثم انتبهت لنفسي فقلت: وما ينفع العتاب، فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصداقـة، فهممت بمقاطعتهم، ثم تفكـرت فرأيت الناس بي معـارف وأصدقاء في الظاهر

(١) صفوة الصفوة ٣/٨.

وإخوة مباطنين، فقلت لا تصلح مقاطعتهم.

إنما ينبغي أن تنقلَهم من ديوان الإخوة إلى ديوان الصداقة الظاهـــرة فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومن الغلط أن تعاتبهم.

قـــال يحيى بـــن معاذ: بئس الأخ تحتـــاج أن تقول له اذْكُرنـــي في دعائك، وجمهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم الصديق في الظاهر...

وإياك أن تنخدع بمـــن يظهر لك الودَّ، فإنه مع الزمان يبين لك الحال فيما أظهره.

وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك.

قـــال الفضيل بن عياض: إذا أردت أن تصادق صديقاً فاغضبْه فإن رأيته كما ينبغي فصادقْه.

وهـــذا اليوم مخاطرة، لأنـــك إذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال[1].

فـــي زمنهم مخاطرة أما في زمننا فهو أكثر من ذلك؟! فقد شَـــحَّت الأنفس وضاقت الصدور واندثرت المروءات

(١) صيد الخاطر ٤٩٧.

إلا ما رحم ربي وقليل ماهم!!

هذا ابن المبارك وقد صحب رجلاً سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى، فقيل له في ذلك، فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخُلُقُه معه لم يفارقْه[١].

قال الفضيل بن عياض: إذا خالطتَ فخالط حَسَنَ الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبُه منه في راحة ولا تخالطْ سيِّء الخُلق فإنه لا يدعو إلا إلى شرٍّ، وصاحبُه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجرٌ حَسَن الخُلُق أحبُّ إليّ من أن يصحبَني قاريء سيء الخُلق، إن الفاسق إذا كان حَسَنَ الخُلُق عاش بعقله وخفَّ على الناس وأحبُّوه، وإن العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على الناس ومقتوه[٢].

أخي الحبيب... ما هو سوء الخلق؟! وبأي شيء يُعرف حسن الخلق؟!

قال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال:

---

(١) الإحياء ١٠/٥٧.

(٢) روضة العقلاء ٦٤.

قلة الخلاف، وحسن الإنصات، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه[١].

سألزمُ نفسي الصَّفْحَ عن كلِّ مذنب
وإنْ كثرتْ منه عليَّ الجرائمُ
وما النَّاس إلا واحد من ثلاثة
شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ
فأما الذي فَوقي فأعْرفُ قَدْرَهُ
وأتَّبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن
أجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا
تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم[٢]

وأعظم من هذا وذاك قول الله جل وعلا: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ

(١) الإحياء ٣/ ٧٧،
(٢) الإحياء ٣/ ١.

وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

[الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠٠].

فالآية تشتمل على أربع قواعد في التعامل مع الناس فأولها: أخذ العفو، وثانيها: الأمر بالمعروف، وثالثها: الإعراض عن الجاهلين، ورابعها: الاستعاذة بالله من نزع الشياطين، وقد روي عن جعفر الصادق أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها[١].

وذكر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سهولة حصول الخير فقال: البرُّ شيءٌ هيِّن، ووجه طليق، وكلام لين[٢].

ومن أدب المجالس وواجبات الإخوة في الله ما قاله مجاهد بن جبر: لا تُحدَّ النظر إلى أخيك ولا تسأل من أين جئت؟ وأين تذهب؟[٣].

وتأمل مجالس اليوم وكثرة الأسئلة فيها؟!

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٨/٣٠٦.

(٢) الأحياء ٣/١٢٩.

(٣) صفة الصفوة ٢/٢٠٩.

ولرفعه النفس وسموها عن الدنايا قال مالك ـ رحمه الله ـ: ما جالست سفيهاً قط!!

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

قال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[(١)].

هذه صفةٌ من صفاتهم وفيض من نبعهم... بها تستمر العشرة وتدوم المودة.

عن ميمون بن مهران قال: سمعت ابن عباس يقول: ما بلغني عن أخ مكروه قط إلا أنزلته أحد ثلاث منازل:

إن كان فوقي عرفتُ له قدره، وإن كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أجهل به[(٢)].

وأما ما وقع فيه كثير من الناس فقد قال عنه الحسن: ابن آدم تبغض الناس على ظنة، وتنس اليقين من نفسك[(٣)].

نعم أنت تعلم وتعرف عيوبك ومساوئك وتظن الظنون

---

(١) السير ٤/ ٤٥٢.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٧٥٤.

(٣) الحسن البصري ١٠٦.

بمساويء إخوانك وأحبائك وتبغضهم لذلك الظن.

إن أثر الصحبة الطيبة والرفقة الصالحة ظاهرة ـ لا تحتاج إلى كثير إيضاح ويكفي من ذلك موقف واحد لتتميز الطرق وتتضح السبُل... ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

يكفي هذا الموقف لتأخذ المحبة في الله الصدارة وقصب السبق...

قال أحمد بن حرب: عبدتُ الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتى تركت ثلاثة أشياء: تركت رضى الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق، وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين، وتركت حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة[1].

وحين لا يجد المسلم من يُعينه... ويثبِّته ويشدُّ أزره في رحلة الدنيا فعليه بقول الإمام أحمد بن حنبل عندما قال: رأيت الخلوة أروح لقلبي[2].

(١) السير ١١/ ٣٤.

(٢) السير ١١/ ٢٢٦.

المحبة في الله

إن المحبة في الله هي أوثق عرى المحبة، وأصدقها وأدومها وأبقاها... فهي وإن كانت تبدأ في هذه الحياة الدنيا... إلا أنها تستمر وتبقى في الآخرة... لأنها محبة قائمة على طاعة الله مستمدة صفاءها من دين الله...

قال رسول الله ﷺ: «المرء مَنْ أحبَّ»[1].

صداقة خير تسير في طريق خير... لأن المسلم بحكم إيمانه بالله ـ تعالى ـ لا يحب إذا أحب إلا في الله، ولا يبغض إذا أبغض إلا في الله... وهو على هذا يحب عباد الله الصالحين ويتقرب منهم ويوادهم ويناصحهم ويواسيهم... فهم أحبته وإخوانه ويتقرب إلى الله بهذا العمل الصالح، وفي الحديث: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان» وذكر منها: «وأنْ يحبَّ المرءَ

(١) متفق عليه.

لا يحبُّه إلا الله»[١].

قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً في سبيل الله، أموت يوم أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً[٢].

وهذا المحبة نابعة من طاعة الله... لاتدنسها أهداف الدنيا ونوازع البشر فلا أطماع ولا مغانم سوى رضى الله وهو خير مغنم...

قال سفيان: ليس شيء من عمل أرجو أن لا يشوبه شيء كحبِّي مجمعاً التميمي[٣].

وهذا كمال الصدق في المحبة والإخلاص في العمل... إنها محبة في الله... والله...

والمحبة في الله تجعل المسلم يرتفع بأخلاقه ويسمو

---

(١) متفق عليه.

(٢) الإحياء ٢/ ١٧٥.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٠٨.

بنفسه عن مواطن الزلل ومظان السوء.

قال عمر بن حفص... قال لي عمر بن عبدالعزيز: إذا سمعت كلمة من امريء مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير[١].

ولا شك أنه إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه، فليأت إلى الناس الذي يُحبُّ أن يُؤتى إليه[٢].

نعم ـ أخي الحبيب ـ أنزل الناس منزلتك.. وأنزل نفسك منزلتهم... فإنك بهذا تُقيم ما اعوجَّ وتُصلح ما فسد...

قال بكر بن محمد بن عبدالله: إذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضلٌ أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل هذا ذنبٌ أحدثتُه[٣].

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً

---

(١) تاريخ الخلفاء ٣٢٣.

(٢) الفوائد ١٩٤.

(٣) صفوة الصفوة ٣/ ٢٤٨.

وأنت تجد لها في الخير محملاً[١].

وقال عبدالله بن زيد الجَرْمي... إذا بلغك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه[٢].

اقبل معاذيرَ مَنْ يأتيك مُعتذراً
إنْ برَّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك مَنْ يأتيك مُعتذراً
وقد أجلَّلك مَنْ يعصيك مُستترا[٣]

قال حماد: ما رأيت رجلاً أشد تبسماً في وجوه الرجال من أيوب السَّختياني[٤].

وهذا التبسم والتبسط للمسلمين... أما ما سواهم... فالأمر كما قال سفيان الثوري عندما سُئل: أصافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجْلك نعم!![٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٢.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٣٨.
(٣) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٤.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣١.
(٥) وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٨.

فإنَّ لأهل الإسلام كرامة ومنزلة لا يبلغها غيرهم من بني الإنسان.

وقد كان لمحمد بن سيرين منازل لا يُكْريها إلا من أهل الذمة، فقيل له في ذلك، فقال: إذا جاء رأس الشهر رُعْتُهُ، أكره أن أروِّع مسلماً[١].

نعم للمسلم مكانة في نفس أخيه المسلم ومحبة خاصة قال الله ـ عز وجل ـ في وصف ذلك بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

روُى عن محمد بن علي قال: أراد جار لأبي حمزة السكري أن يبيع داره، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وبألفين جوار أبي حمزة، فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجَّه إليه بأربعة ألاف، وقال له: لا تبعْ دارك[٢].

وانظر ـ أخي الحبيب ـ إلى الفرح والسرور برؤية آثار الطاعة ومحبة الخير للمسلمين... قال صالح (بن أحمد بن حنبل) جاء جارٌ لنا قد خَضَبَ، فقال أبي: إني لأرى

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٤ وحلية الأولياء ٢/ ٢١٨.

(٢) السير ٧/ ٣٨٧.

الرجل يُحيي شيئاً من السنُّة فأفرح به[١].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خيرٌ مني، قيل له: وكيف ذلك يا أبا معاوية؟ قال: كلهم يرى الفضل لي علي نفسه، ومَنْ فضَّلني على نفسه فهو خيرٌ مني.

والمرءُ يُذْكَرُ بالجمائل بَعْدَهُ
فارفع لذكْرك بالجميل بناء
واعلم بأنك تُذْكَرُ مرةً
فيُقالُ: أحسن، أو يقال أساء

إنها صفات كُمِّلت وجُمِّلت بالإسلام... فكان تاجاً للأخلاق الفاضلة ونبراساً للمعاملة الحسنة...

وتبقى الدنيا دار الهفوات ومقر الزلات والعثرات... فهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة، أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نُصحه بما يقومِّ اوْدَهُ[٢]، ويجمع شمله ويعيد

(١) السير ١١/ ٢٣٥.

(٢) أُودَ: أي: اعْوَجَّ.

إلى الصلاح والورع حاله[١].

ويكون ذلك عن طريق النصيحة والتوجيه... وذلك بالحسنى والموعظة الحسنة قال سفيان الثوري قلت لسعد بن كدام: تُحب أن يُهدي إليك عيوبك؟ قال: أما من ناصح فنعم، أما من موبخ فلا[٢].

قال الإمام الشافعي:

تعمَّدني بنصْحك في انفرادي
وجنِّبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين النَّاس نوع
من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإنْ خالفتني وعصيت قولي
فلا تجزع إذا لم تُعْط طاعة

حين أمر أبو الدرداء على رجل قد أصاب ذنباً فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله ـ عز وجل ـ الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال:

(١) الإحياء ٢/ ١٩٩.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢١٧.

إنما أبغضوا عمله فإذا تركه فهو أخي. . .

وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه[١].

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء ليفسد العمل، كما يفسد الخَلُّ العسل، وقد تكون في الرجل أخلاقٌ كثيرة صالحة كلها، وخلق سيء، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الصالحة كلها[٢].

والناصح المشفق هو الأخ الصادق كما قال يحيى بن معاذ: أخوك من عرَّفك العيوب وصديقك من حذَّرك من الذنوب.

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٠٠.

(٢) روضة العقلاء ٦٤.

وحتى حينما تكون المواجهة في مكان عام فانظر إلى الحلم والعفو وطيب النفس وعلوها. . . خرج علي بن الحسين يوماً في المسجد فسبَّه رجل، فانتدب الناس إليه فقال: دعوه، ثم أقبل عليه، فقال ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه وأمر بألف درهم[١].

قال حبيب الجلاب سألت ابن المبارك: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل، قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب، قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره، قلت فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل[٢].

وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظة على رؤوس الناس فإنما وبخة.

وقال الفضيل بن عياض موضحاً الفرق بين

(١) البداية والنهاية ٩/ ١١٨.

(٢) السير ٨/ ٣٩٧.

الناصح والشامت: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويُعبر[١].

وينثر أبو الدرداء دراً من الكلام وجواهر من الحكم فيقول: معاتبة الأخ خيرٌ من فقده، ومَنْ لك بأخيك كله أعط أخاك ولِنْ له ولا تطع به حاسداً فتكون مثله، غداً يأتيه الموت فيكفيك قتله، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركتَ وَصْلَهُ[٢].

لا أمدحُ المر أبغي من فضائله
ولا أظل أداجيه إذا غضبا
ولا يراني على باب أراقبه أبغي
الدخول إذا ما بابه حَجَبا

قال الخليل بن أحمد النحوي: الرجال أربعة، فرجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك غافل فنبِّهوه، ورجل لا يدري ويدري أنَّه لا يدري فذاك جاهل فعلِّموه، ورجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فاتَّبعوه، ورجل لا

(١) جامع العلوم والحكم ٧٧.
(٢) صفوة الصفوة ١/ ٣٦٤.

يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك مائق فاحذروه[١].

والنصيحة طريق الناصحين، وهذا رجل نصح لأبي حنيفة فقال: اتَّق الله!! فانتفض أبو حنيفة واصْفَرَّ، وأطْرَقَ، وقال جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس كل وقت إلى من يقول مثل هذا[٢].

والتواصي بالحق... يصدر من صغير إلى كبير ومن كبير إلى صغير... بل ومن عالم إلى عالم...

كتب إبراهيم بن أدهم إلى الثوري: مَنْ عرف ما يطلب هان ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة وكلمة الحق عند من يُرجى أو يخاف[٣].

حياة المؤمن كلها طاعة وأوقاته جلها عبادة... قال

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ٧٨٨.

(٢) السير ٦/ ٤٠٠.

(٣) جامع العلوم والحكم ١٩٥.

حاتم الأصم: ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموت وألبس الكفن وأسكن القبر[١].

وكان الربيع بن خيثم إذا أصبح قال: مرحباً بملائكة الله... اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

أخي الحبيب... انظر القياس وزن الأمور... قال عروة بن الزبير لبنيه ناصحاً وموضحاً: إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة، فاعلموا أن لها عنده أخوات، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده إخوات، فإن الحسنة تدل على أختها، والسيئة تدل على أختها[٢].

وأيام الحياة تسير... ودقائق الأوقات تنقضي... ما هو الخير في تلك اللحظات الغالية النفيسة، إنه كما قال سعيد بن عبدالعزيز... لا خير في الحياة إلا لصموت واع وناطق عارف[٣].

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٦٢.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١١٥.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٢١٩.

وتبقى لحظات في حياة المسلم يؤانس بها صحبه ويزيل الكلفة عن رفقته... فالدعابة لها وقت وشروط والمزاح له حد معقول... فلا يفرط فيها... لأن الإسلام ليس في حاجة إلى الهازلين والمهرجين والآعبين، بل الحاجة قائمة للرجال الجادين الذين شغلوا أوقاتهم بطلب العلم والدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما من يُكثر من المزاح فقد أساء كل الإساءة لنفسه ولدينه، ومن حرص على سنته ﷺ، فإنه سيطعي المزاح قدراً يسيراً، والحق أنه من الغلط العظيم أن يُتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى لعب الزنوج في يوم عيد[1].

عن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر بن عبدالعزيز: يا أحنف، من كثر ضحكه قلتْ هيبته، ومن مزح استُخفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومَنْ كثر كلامه كثر

(١) تهذيب موعظة المؤمنين.

سقطه وقلَّ حياؤه، ومَنْ قلَّ حياؤه قل روعه، ومن قل ورعه مات عليه[١].

والوجْهُ تُخْلِقُهُ المزاحة إنها
لفظٌ يضرُّ ومنطقٌ لا يُرشدُ
فَدعَ المزاحة للسَّفيه فربما
هاجتْ عجاج عداوة لا تحمدُ[٢]

إن الجاد في عمله الخائف من الأحوال التي أمامه...

في حال لايتطرق إليها المزاح ولا الهزل إنه كما قال موسى بن إسماعيل: لو قلت لكم إني مارأيت حماد بن سلمة ضاحكاً قط لصدقتكم، كان مشغولاً لنفسه، إما أن يحدِّث وإما أن يقرأ وإما أن يُسبِّح وإما أن يُصلِّي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال.

نعم كانوا يخشون ما أقبل من الأيام ويخافون موقفاً تقشعر من رؤيته الأبدان... فقد كان عبدالله أبو يعلى يقول: أتضحك ولعلَّ أكفانك قد خرجت من عند.

(١) تاريخ عمر لابن الجوزي ٢٠٠.
(٢) كتاب الصمت ٢١٢.

القصَّار[١].

وحُكي عن بعض الصالحين أنه رأى رجلاً وهو يضحك ضحكاً شديداً، فقال له: يا هذا هل ذقت الموت؟ قال: لا، قال: فهل رجح ميزانك؟ قال: لا، قال: فهل جزت الصراط؟ قال: لا، قال: فلأي شيء هذا الضحك والفرح؟!

قال فبكى الرجل وقال: لله علي نذرٌ أن لا أضحك بعدها أبداً.

لله دَرُّه... أفاق من غفلته وقام من كبوته... ليته يسمع بعض ضحكات المجالس... ومزاح الفارغين... وتفاهة بعض المتحدثين.

بل كيف لو رأى اللاهون العابثون يوماً من أيام وكيع بن الجراح... فقد كان لا ينام حتى يقرأ ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر فيصلي ركعتين!!

---

(١) الإحياء ٣/ ١٣٧.

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

قال الحارث الغنوي: آلى ربعي بن حراش أن لا يضحك حتى يعلم في الجنة هو أو في النار.

قال الحارث الغنوي: فلقد أخبرني غاسله أنه لم يزل مبتسماً على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا من غسله.

رحم الله ضعفنا وتفريطنا وطول غفلتنا...

قال عمر بن عبدالعزيز لإسماعيل بن عبدالله: يا إسماعيل: كم أنت عليك من سنة؟! قال: ستون سنة وشهور، قال: يا إسماعيل إياك والمزاح.

أخي:

إذا ما أتتْك الأربعون فعندها
فاخْشَى الإله وكن للموت حذرا[1]

قال الفضيل بن عياض: بلغني عن طلحة بن مصرف أنه ضحك يوماً، فوثب على نفسه فقال: فيم الضحك؟ إنما يضحك من قطع الأهوال وجاز الصراط، ثم قال: آليت أن لا أفتر ضاحكاً حتى أعلم بم تقع الواقعة، فما

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٩.

رُئِي ضاحكاً حتى صار إلى الله ـ عز وجل ـ.

وعن سعيد بن سالم القداح قال: سمعت عبدالعزيز بن أبي روَّاد يقول لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ بشيء: الإسلام، والقرآن، والشَّيب.

صاح بي الشيبُ لا مقام
بين الرجعة السقام
صوتان قد أزْعجا وحثا
عمري وراعني الحمامُ
لا آمن الدَّهْرَ المنايا
إذ كلُّ عُمر له انعدام[1]

ومن رأى تقلب الأيام وسرعة انقضائها وفجأة الموت... هل يتنعم بلذة نعيم أو يهنأ باله بطُرفة ودعابة؟! الأمر جِدٌّ... والحساب شديد الجزاء قادم...

يا واقفاً يسأل القبور أفق
فأهلها اليوم عنك قد شغلوا
قد هالهم منكر وصاحبه
وخوف ما قدموا وما عملوا

(١) حلية الأولياء ١٠/ ١٨٤.

رهـــائـــن لـــلـــثَّـــرى عـــلـــى مـــدر
يُـســمـع لـلـدود بـيـنـهـم زجـلُ
ســرى الـبـلـى فـي جـسـومـهـم فـجـرت
دمـــاً وقـيـحـاً وســالـت المـقـلُ(١)

أخي المسلم... عشت مثلي لحظات مشرقة من حياتهم... سمعنا حديثهم ورأينا جدهم... والسؤال الآن... هل نترك التبسم والدعابة والطرفة مع الأحباب والأصحاب؟!

قال الذهبي: الضحكُ اليسيرُ والتبسُّمُ أفضل، وعدم ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدباً وخوفاً من الله، وحزناً على نفسه المسكينة.

الثاني: مذموم لمن فعله حمقاً وكبْراً وتصنُّعاً كما أنَّ من أكثر الضحك استُخفَّ به، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخفُّ وأعذر منه في الشيوخ.

وأما التبسُّمُ وطلاقةُ الوجه فأرفع من ذلك كله، قال

(١) التبصرة ١/ ٩١.

النبي ﷺ: «تبسُّمك في وجْه أخيك صدقة»[١].

فهذا هو خلق الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكَّاءً بالليل، بسَّاماً بالنهار، وقال عليه السلام: «لن تَسعَوا الناس بأموالكم، فلْيسَعْهُم منكم بَسْطُ الوَجْه»[٢].

ينبغي لمن كان ضحوكاً بسّاماً أن يُقصرِّ من ذلك، ويلوم نفسه حتى لا تمجَّه الأنفس، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يتبسَّم ويحسِّن خلقه، ويمقت نفسه على رداءة خُلُقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولا بدَّ للنفس من مجاهدة وتأديب[٢].

أخي المسلم... إن كانت الرفقة الصالحة والأخوة الصادقة تعين على الطاعة وتشد الأزر وتشحذ النفوس... فإن المسلم يحتاج إلى وقفات محاسبة ولحظات مراجعة.

قال عمر بن الخطاب: خذوا بحظكم من العزلة[٣].

ولسنا نريد رحمك الله بهذه العزلة التي نختارها

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه الحاكم والبزار وأبو يعلى وفي إسناده ضعف.

مفارقة الناس في الجماعات والجمعات وترك حقوقهم في العبادات وإفشاء السلام ورد التحيات وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة ووضائع السنن والعادات المستحسنة بينهم، فإنها مستثناه بشرائطها جارية على سبلها مالم يحل دونها حائل شغل ولا يمنع عنها مانع عذر[١].

ولذلك قال إبراهيم النخعي لغيره: تفقَّه ثم اعتزل[٢]، وأما إذا كانت العزلة فيها مجانبة لمجالس الشر ومفارقة لرفقاء السوء فإنها كما قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: في العزلة راحة من خليط السوء[٣].

وقال أبو ذر: الصاحب، مملي الخير خيرٌ من الساكت، والساكت خيرٌ من مملي الشر[٤].

والمرء كما قال عنه مسروق: حقيق أن تكون له مجالس

---

(١) العزلة ١٣.

(٢) العزلة ٢٤.

(٣) العزلة ١٨.

(٤) العزلة ٥٧.

يخلو فيها فيذكر ذنوبه ويستغفر منها[١].

دعْ الناسَ ما شاءوا يقولوا فإنني
لا أكثر مما يحكي عليَّ خُمُول
فما كل من أغضبه إذا معتب
ولا كل ما يروى عليَّ أقول

والعزلة أخي الحبيب فيها فوائد ظاهرة خاصة في مجتمعات تتفشَّى فيها الغيبة والنميمة. . . كما قال إسماعيل بن محمد: سمعت ابن إبراهيم يقول لو لم يكن في العزلة أكثر من أنك لا تجد أعواناً على الغيبة لكفى[٢].

والكثير تنفر نفسه من العزلة ولا يصبر عن الناس والسبب في ذلك كما قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه فتكثر حينئذ علاقات الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة.

وخير جليس كتاب الله يؤانس به المسلم وحدته ويتدبر

(١) العزلة ٣٩
(٢) العزلة ٣١.

آياته... قال بعضهم: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس[١].

وإلا فكيف تتكدر نفسه ويضيق صدره وبين يديه كتاب الله ـ عز وجل ـ يقرأه ويتدبر معانيه.

قيل لابن المبارك: إذا أنت صلَّيت لم لا تجلس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس[٢].

وليست المؤانسة بكثرة الكلام والمداعبة والمزاح... فمن تهدأ بحضوره نفسك ويرتاح لوجوده سمعك وعينك فإنه نعم الرفيق حتى وإن تباعدت أيامه وغابت طلعته...

قال شبيب بن شيبة: إن من إخواني من لا يأتيني في السنة إلا اليوم الواحد... هم الذين أتخذهم وأعدُّهم للمحيا والممات، ومنهم من يأتيني كل يوم فيُقبِّلُني وأقبله، ولو قدرت أن أجعل مكان قبلتي عضة لعضضتُه[٣].

---

(١) العزلة ٢٢.

(٢) السير ٨/ ٣٩٨.

(٣) العزلة ٤٥.

ويحتار الإنسان في الناس فكيف السلامة والمخرج؟! وأين الطريق والجادة؟!

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ ليونس بن عبدالأعلى: يا أبا موسى رضا الناس غاية لا تدرك، ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما فيه صلاح نفسك فالزمه، ودع الناس وما هم فيه[١].

أخي الحبيب... لا تنس قول سفيان الثوري: كثرة أصدقاء المرء من سخافة دينه...

قال أبو سليمان يوضح ذلك... يريد أنه ما لم يداهنهم ولم يُجِّلهم لك يكثروا لأن الكثرة إنما هي في أهل الريبة، وإن كان الرجل صلب الدين لم يصحب إلا الأبرار الأتقياء وهم فيهم قلة[٢].

قال مالك ـ رحمه الله ـ: الناس أشكال كأجناس الطير، الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع

---

(١) العزلة ٧٩.

(٢) العزلة ٤٤.

البط، والصَّعْو[١] مع الصَّعْو وكل إنسان مع شكله[٢].

وهذا بعض آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء: إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوّك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة، وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم، ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب من وجهك وكثرة التمصي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا

(١) الصَّعْوُ: عصفور صغير.

(٢) روضة العقلاء ١٠٩.

تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قرَّبك سلطانك فكن منه على مثل السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهيه مالم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقاً عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال، وإياك

وصدق العافيــة فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلساً فــالأدب فيه البداية بالتســليم وترك التخطي لمن ســبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيى بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشــاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرتياد لموضــع البصاق ولا تبصق في جهة القبلــة ولا عــن يمينك ولكن عن يســارك وتحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكــذب وصيانة الســر وقلة الحوائــج وتهذيب الألفاظ والإعــراب في الخطاب، والمذاكــره بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم ـ وإن ظهرت لك المودة ـ وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شــيء إلا إفشــاء السر والقدح في

الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم، وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترئ عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجرئ السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون، وهو يميت القلب ويباعد عن الرب ـ تعالى ـ ويكسب الغفلة ويورث الذلة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب وقد قيل: لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر، ومن بُلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه، قال النبي ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك**»[(١)].

(١) رواه الترمذي وأحمد وابن حبان وصححه الشيخ الألباني.

وقبل الختام... نُعرج على أعظم صحبة وأجلها فقد كان الصديق ـ رضي الله عنه ـ رفيق رسول الله ﷺ في دعوته وهجرته وجهاده... فقدم روحه وماله فداء للرسول ﷺ ونفعاً للإسلام والمسلمين قال رسول الله ﷺ: «**ما نفعني مالٌ قط كمال أبي بكر**»[١]، وقال ﷺ: «**إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبوبكر**»[٢].

أخي المسلم... جعلنا الله وإياكم من المتحابين فيه وجمعنا ووالدينا وأبنائنا وأزواجنا وأقاربنا في جنات عدن...

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البخاري.

المصادر

١ـ إحياء علوم الدين للغزلي ـ دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.
٢ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
٣ ـ التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.
٤ ـ تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.
٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
٦ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
٧ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.
٨ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ.
٩ ـ تهذيب موعظة المؤمنين، جمال القاسمي، دار ابن القيم، ط٢.

١٠ ـ التواضع والخمول لابـــن أبي الدنيا، تحقيق لطفي الصغير، دار الاعتصام.

١١ ـ جامـــع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

١٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١٣ ـ دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.

١٤ ـ روضة العقلاء ونزهـــة الفضلاء للإمام الحافظ أبي حـــاتم محمد بن حبان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الكتب العلمية.

١٥ ـ الزهد للحسن البصري، تحقيق د/ محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

١٦ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي تحقيق د/ تقي الدين الندوي، دار القلم.

١٧ ـ شـــذرات الذهب في أخبار مـــن ذهب لابن عماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٨ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

١٩ ـ صيد الخاطر لابن الجـــوزي، دار الكتاب العربي،

ط٢، ١٤٠٧هـ.

٢٠ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية وأخرى دار المعرفة، بيروت.

٢١ ـ الفوائد، لابن القيم الجوزية، دار النفائس.

٢٢ ـ كتاب الصمت وآداب اللسان للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا، تصنيف أبي أسحاق الجويني، دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.

٢٣ ـ كتاب العزلة لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، ط١، ١٣٥٦هـ نشره عزت العطار.

٢٤ ـ مختصر منهاج القاصدين للإمام المقدس ـ تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٢٦ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط١، ١٣٩٨هـ، دار العربية.

٢٧ ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٧٦٧هـ.

الفهرس

المقدمة ٥
مدخل ٧
من يصلح للحبة ٨
وصف الصحبة ٩
الإخوان الثلاثة ١٣
كرام الناس ٢١
الواجب على العاقل ٢٣
حقوق الجليس ٢٦
العاقل والأشرار ٢٩
نصيحة مُحب ٣١
قياس الصحبة ٣٦
بئس الأخ ٣٩
حسن الخلق ٤٣
المحبة في الله ٤٨

برجلك نعم..... ٥١
الواجب على العاقل..... ٥٥
أعز الأشياء..... ٥٨
الضحك..... ٦٠
التبسم..... ٦٦
العزلة..... ٦٦
آداب العشرة..... ٧١
المصادر..... ٧٦
الفهرس..... ٧٩